

موقف النخب الجزائرية من سياسة فرنسا التعليمية أثناء الاحتلال الفرنسي

صافر فتيحة
جامعة وهران

ملخص

اختلفت مواقف النخب الجزائرية حيال سياسة التعليم الفرنسية. فمنها تلك التي أيدت هذه السياسة باعتبار التعليم الفرنسي جسر للتقدم والحضارة. و ما الثقافة واللغة الفرنسية إلا وسائل توصل إلى المبتغى. ومنها تلك التي رأت في التعليم الفرنسي وسيلة لضياح الهوية من لغة ودين. ومن أجل ذلك لجأت إلى التعليم العربي الحر لعلها تحافظ من خلاله على مقومات الشخصية الجزائرية. لكن الذي حدث ان كل النخب الجزائرية اتفقت حول ،أن التعليم الأهلي في الجزائر يحتاج إلى إصلاح وتعميم. و أنه تعليم ناقص ولا يخدم إلا قلة قليلة من الجزائريين.

بصف توكفيل¹ في تقرير مشهور وضعه سنة 1847 حجم الدمار الثقافي الذي أحدثه الاستعمار الفرنسي في الجزائر فيقول : " في كل مكان وصلنا إليه، سلبنا مدا خيل المؤسسات الخيرية والدينية المخصصة للفقراء والتعليم، وحرفناها عن استعمالاتها المألوفة. لقد حططنا المؤسسات الخيرية وأهملنا المدارس وحاربنا أماكن التعليم. لقد انطفأت الأضواء في كل مكان من حولنا، وتوقف توظيف رجال الدين والقانون المسلمين. بمعنى آخر أننا جعلنا

¹ - ألكسي دو توكفيل : هو أحد كبار المفكرين الفرنسيين ، مؤرخ وعالم إجتماع ومنظر سياسي معروف، ولد سنة 1805 وتوفي سنة 1859. اشتهر بكتابه عن الديمقراطية في أمريكا وكذلك كتابه عن النظام القديم والثورة. أصبح نائبا في البرلمان الفرنسي ووزيرا لخارجيتها. وفي تقريره هذا وضح نظريته للغزو الفرنسي وكيفية توطيد قدم الإحتلال في الجزائر.

المجتمع الجزائري أكثر بؤسا وأكثر جهلا وأكثر همجية مما كان عليه قبل أن نعرفنا.²

1. المدرسة الكولونيالية

دخلت المدرسة في سياق السياسة الاستعمارية كأحد الوسائل التي لجأت إليها السلطات الفرنسية لإتمام غزوها للجزائر. فحتى تنقي شر أهلها كان لابد لها من غزو عقولهم وتفتيت وحدتهم بعدما استولت على أرضهم. وذلك من خلال إيجاد معابر لاختراق المجتمع الجزائري و إعادة تشكيله في صورة أخرى، فكان أن لجأت إلى مسخ الهوية الجزائرية بخلق نخبة جزائرية جديدة فاقدة لانتمائها مؤيدة لفكرة الإدماج داخل مجتمع حضاري راقى هو المجتمع الفرنسي. وتحويل الإنسان الجزائري إلى إنسان فرنسي يجهل لغته، تاريخه وحضارته العربية الإسلامية. فكانت المدرسة بمثابة الآلة المدمرة لكل أوجه ومظاهر الثقافة الجزائرية. ، التي كانت تقوم على تأطير بيداغوجي باللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية.

ومن ملامح هذه السياسة التعليمية. الإهمال المتعمد لتعليم الجزائريين. حيث أغلق الكولون أبواب التعليم في وجوههم. وبرروا ذلك بالحواجز الشرعية والدستورية أي إلى قضية الجنسية. فهي مع أن يكون المرء فرنسيا لكي يتمتع بكل الحقوق بما في ذلك التعليم³ و حين كانوا يسمحون به كانت نسبة الجزائريين المتمدرسين لا يجب أن تتعدى نسبة أبناء الكولون. خوفا من أن تتكون مع مرور الزمن نخبة جزائرية متعلمة يفوق عددها عدد المعمرين وبالتالي يختل توازن القوى لغير صالحهم. ولما توجه الجزائريون نحو البحث عن مصادر للمعرفة والتعليم دون المدارس الفرنسية التي سدت أبوابها في وجوههم. سارعت الإدارة الفرنسية إلى إخضاع المدارس الحرة إلى الرقابة الشديدة والإغلاق أحيانا أخرى وفقا لقانون 30 أكتوبر 1887. والتفتيش من

² - البخاري، ح. (2005) فلسفة الثورة الجزائرية. وهران: دار الغرب للنشر والتوزيع ، ص 91

³ - أبو القاسم، س. (1983) تاريخ الحركة الوطنية ، الجزء 2 . الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. ص 143

قبل السلطات الفرنسية إذا اقتضى الأمر ثم وضعت تحت إشراف البلديات ومراقبتها.⁴

وأبدى الجزائريون مقاومة لكل أشكال السياسة الاستعمارية، وأهدافها بما فيها سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر. ليس بوصفها نظام تعليمي جديد وحديث يختلف عن ذلك الذي عهده قبل الاحتلال. وإنما بوصفها وسيلة الاستعمار الفرنسي لطمس معالم الشخصية العربية الإسلامية للشعب الجزائري، من خلال مناهج تعليمية لا علاقة لها بالهوية الثقافية والتاريخية التي تختلف كل الاختلاف عن الهوية الكولونيالية. ولا تلبي حاجتهم إلى المعرفة التي تمكنهم من أسباب النهضة والتطور. فإذا كانت النخبة الجزائرية بمختلف توجهاتها وخلفياتها الثقافية قد أيدت قيام نظام تعليمي جديد وحديث لتطوير المجتمع الجزائري، فقد اختلفت في مواقفها حول طبيعة هذا التعليم وأهدافه بالدرجة الأولى. واتفقت على أن السياسة التعليم الأهلّي بالطريقة التي يقدم بها إلى أبناء الجزائريين ليست مجدية، وهو تعليم مجحف في حقهم. لأنه يختلف عن ذلك الذي يقدم للأبناء المعمرين، وكذلك لأنه لا يلبي طموحات وتطلعات أبناء الأهالي ولا يؤدي إلى المساواة المنشودة لكثير من أفراد النخبة الجزائرية التي رأت في التعليم الفرنسي وسيلة لاندماج الجزائريين ومساواتهم مع المعمرين.⁵

هز التدهور الخطير للتعليم في الجزائر أولئك الجزائريين الذين كانوا من النخبة. واقتنعوا بأن الجزائر ستعود إلى الخلف إذا لم يعمل شيء في الموضوع، فتوجهوا باللوم إلى السلطات الفرنسية التي لم تفعل الكثير بخصوص تعليم الجزائريين لذا شعروا أنه من واجبهم المطالبة بتحسين ومضاعفة الجهود لنشر التعليم بين الجزائريين.⁶ ورفضوا الحجة الاستعمارية القائلة بأن الجزائريين من جنس غير قابل للتعليم انطلاقاً من أنفسهم الذين وصلوا إلى درجات علمية عالية عندما فتحت لهم أبواب التعليم وفرص العمل.⁷ وكذبوا الإدعاء القائل بأن الجزائريين كانوا أعداء المدرسة، وذكروا بأن الحضارة الإسلامية التي ينتمي إليها الجزائريون تكن إحتراماً عالياً للتقدم الأخلاقي والإنساني. لذلك طالبوا بوضع برامج خاصة لتعليم الجزائريين

4- حلوش، ع. (1997) السياسة التعليمية في الجزائر 1871- 1914. الجزائر: دار الأمة، ص 183

5- Le petit Tlemcenien, 17 juillet 1930

6- أبو القاسم، س. المرجع السابق، ص 165

7- حلوش، ع. المرجع السابق، ص 269

ووضعها موضع التنفيذ وإصلاح المدارس الفرنسية الإسلامية. ونشر التعليم الفرنسي لتطوير المجتمع الجزائري.⁸ وخلال سنة 1891 سافر إلى باريس وفد من أعيان الجزائر بقيادة عناصر لامعة، منهم الدكتور محمد بن العربي، والشيخ محمد بن رحال وهما من العناصر الفاعلة في الحياة الجزائرية وقتئذ، واحتوت العريضة التي سلموها للإدارة الفرنسية على جملة من المطالب الأساسية ومنها تعميم التعليم لكافة الطبقات، فتح الآفاق أمام التعليم العالي مع ضرورة الاعتناء باللغة العربية و أصول الفقه الإسلامي.

وظلت مسألة تعليم الجزائريين من بين اهتمامات الشيخ محمد بن رحال⁹ التي جعل منها مطلباً أساسياً أمام لجنة التحقيق البرلمانية التي زارت الجزائر في عام 1892، حيث أكد على ضرورة إحياء وتنظيم المدارس الإسلامية، وتوسيع مؤسسات التعليم ومراقبتها من طرف الجزائريين، مع ترقية الفئة المتعلمة اجتماعياً وسياسياً.¹⁰ وخلص بن رحال في رسالته إلى أن التعليم الفرنسي لن يكون إيجابياً إلا إذا كان مكماً للتعليم العربي الإسلامي، فبالنسبة إليه هدف التعليم ليس هو تملك العلوم الغربية فقط، بل يعني أيضاً على وجه الخصوص إعادة تملك الرسالة القرآنية الخالية من كل الشوائب، لذلك كانت دعوته واسعة لتعميم تدريس اللغة العربية بين الجزائريين وجعلها تدرس من طرف مدرسين عرب في الدواوير والمراكز الأوروبية.¹¹ وتنظيم التعليم العمومي دون الانبهار بما تحتويه الثقافة الفرنسية. كما أكد على إنشاء مدارس

8 - ابو القاسم ، س. المرجع السابق ، ص 165

9 - محمد بن رحال: من أسرة عريقة ببلدة ندرومة. ولد محمد بن الحاج بن البشير بن أحمد بن علي بن رحال. في 14 أفريل 1861. دخل الكتاب ولم يتجاوز الخامسة من عمره. وبعد حفظه القرآن، التحق بالمدرسة الابتدائية الفرنسية ثم بالمدرسة الإمبراطورية بالعاصمة. وفي عام 1874 عاد إلى مسقط رأسه وبعدها أنابه والده وظيفة الأغا التي كان قد تقلدها قبله، سافر في عام 1878 إلى أوروبا لمشاهدة المعرض الكبير. وفي 1891 عاد مرة أخرى إلى باريس مع صديقه الدكتور محمد بن العربي ليناقش البرلمان في المسائل الأهلية. وفي عام 1912 سافر ضمن وفد من أعيان الجزائر ليدافع على رفض قانون التجنيد الإجباري المفروض على الجزائريين. كان من أشد المدافعين على اللغة العربية وطالب بتعميم تدريسها في المدارس الفرنسية. كما كان من المتحمسين للحصول على الحقوق مثل الفرنسيين. توفي في 28 أكتوبر 1928.

¹⁰ - جغلول، ع. (1983). تاريخ الجزائر الحديث، دراسة سوسيولوجية.

جزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ص 88

¹¹ - Délégations financière. Session ordinaire mai- juin 1921 p17

التعليم العمومي والتعليم المهني. واحتج بشدة على الإجراءات التعسفية المطبقة في حق اللغة العربية بغرض القضاء عليها¹². وقد لقيت مطالب بن رحال رواجاً معتبراً في أوساط النخبة الجزائرية القريبة من توجهاته الفكرية التي ترمي إلى إصلاح دائرة تعليم الجزائريين في إطار استعادة الهوية العربية الإسلامية دون التشنق بأمجاد الثقافة الفرنسية، ومن بين هؤلاء الأمير خالد الذي لا حظ في عرض عن حال المسلمين الجزائريين. أن التعليم يكاد ينعدم في بعض المناطق الجزائرية، وأن عدد المدارس التي فتحتها الإدارة الفرنسية لتعليم أبناء المعمرين تفوق بكثير عدد المدارس المخصصة للأطفال الجزائريين. في الوقت الذي قامت بغلق المدارس القرآنية بحجة أنها تعلم التعصب كما استنتج أن الأحوال المزرية للأسر الجزائرية قد اضطرتها إلى دفع أبنائها الصغار الذين لم يتعدى سنهم 6 أو 8 سنوات إلى العمل في مهن مختلفة كزراعة أو ماسحي أحذية و مساعدين في المناجم والحقول. وأضاف أن سياسة فرنسا التعليمية هذه قد دفعت الأطفال الجزائريين لمدرسة الشارع. حتى تحافظ على تفوق المعمرين. لأن فرنسا تعتقد أن الجزائري المتعلم والمثقف خطر على تفوق ومصالح الأوروبي في الجزائر¹³. ومن أجل ذلك دعا عمر راسم المسلمين إلى ضرورة الاعتماد على أنفسهم في تعليم أبنائهم. فقد كان يرى أن العلم وسيلة توعية، تفتح أعين المسلمين الجزائريين على واقعهم المرير. ويريده أداة إعزاز وإباء توقظ مشاعر الوطنية. لذلك كتب في جريدة الحق قائلاً: "يجب أن نتعلم لكي نشعر بأننا ضعفاء، ويجب أن نتعلم لكي تأبى نفوسنا الضيم ولكي نطلب العدل والمساواة بين الناس في الحقوق الطبيعية. وفي النهاية لكي نموت أعزاء وشرفاء ولا نموت أعزاء وشرفاء ولا نموت أذلاء جبناء"¹⁴. ومع بدايات القرن العشرين أصبحت مسألة التعليم في الجزائر تدور حول محورين أساسيين أولهما المدرسة الفرنسية بوصفها عنوان للحداثة والحضارة. والمدرسة الحرة بوصفها عنوان للمقاومة والحفاظ على الهوية العربية الإسلامية. حيث كان فرحات عباس يؤمن أن بناء "الجزائر

12p Session ordinaire 1927.- Délégations financière. 12

13- Emir, Khaled . (1987). La situation des musulmans indigènes d'Algérie. Alger : OPU. p39

14 - أمخلاف، أ. (2008-2009). عمر راسم حياته ونشاطه 1884 - 1959. رسالة ماجستير، جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ، ص 95. عن جريدة الحق الوهراني العدد 46. في 25 أوت 1912

الفرنسية" لا بد أن تمر عبر تعليم الجزائريين وربطهم اقتصاديا وإداريا مع فرنسا. و أن قيادة الجزائر نحو الحضارة تمر بتمدين أهلها وتحضيرهم،¹⁵ وترقية المجتمع والفرد الجزائري لن تكون إلا من خلال التعليم. فقد لاحظ أن نسبة الجزائريين المتدنية في المدارس الفرنسية (543 مدرسة ل 40.000 طفل جزائري من مجموع 6 ملايين مقابل 1130 مدرسة ل 110.000 طفل فرنسي) لا تخدم هذا الهدف. فدعا إلى تعميم التعليم للجميع ولكل طبقات المجتمع. وتضافر جهود المدرس والمعلم. من أجل تعليم مزدوج . كما رأى أن تعليم الفتاة الجزائرية أساسي و لا بد من البدء به .لأن أثرها في تربية الأولاد كبير، ودورها الاجتماعي مهم جدا.¹⁶

أما الشيخ عبد الحميد بن باديس فقد هاجم سياسة فرنسا التعليمية إزاء الجزائريين .و لاحظ أن تدني نسبتهم في المدارس الابتدائية والثانوية راجع إلى فقر البلاد من المدارس الكافية. وأكد أن سياسة البلاد لو ظلت على حالها ستصبح البلاد فقيرة من اللغة الفرنسية ومرزوعة في لغتها العربية التي توقع لها القضاء بعد خمسين سنة لو بقي الوضع على حاله.ورأى أن العلاج يكمن في و"جوب تأسيس المدارس الابتدائية في المدن والقرى لتعميم التعليم الابتدائي الحر الفرنسي والعربي .لمقاومة الأخطار التي أوشكت أن تكتسح اللغة العربية،وتحمد عاطفة الالهة على اللغة الفرنسية ولإحياء الأولى والسمو بالثانية إلى قيمتها". كما أضاف أن "سياسة التجهيل التي تمارسها فرنسا في حق الجزائريين ستخلف فئات جاهلة، مطعمها كله سد الرمق اتجاه الفقر الجارف الذي تعيش فيه ، وهذا العراك العاصف مما يصرف بدهة عن كل واجب ، ويدفن الأمانى في الصدور، ومن البديهي أن أولاد هؤلاء التعساء سينشأون نشأة لا تمت بصلة إلى تقليد الأسلاف ومقدساتهم."¹⁷

وانتقد أبو اليقضان المدرسة الفرنسية ومناهجها، التي بعدما اصطدمت بصلاية الجزائريين ، توجهت إلى الناشئة في المدارس ،لبث جراثيمها عن طريق الجرعات الثقافية. وكان من نتائجها الخطيرة أن بدأت تظهر للعيان فئة ناشئة متعلمة تعليما فرنسيا محضا. قوامه إعلاء مجد أوروبا وإحياء عظمتها ونشر لغتها وإتقان آدابها.لا ذكر فيه للغة العربية ولا تاريخ الإسلام

¹⁵ - Ferhat,Abbas.(2011) .Le jeune Algérien. de la colonie vers la province. Alger : Algérie livres edition, p 102

¹⁶ - Ibid, p. 127

¹⁷ - الشهاب . فيفري 1930. ص 33

وجغرافية بلاد الإسلام إلا عرضاً.¹⁸ بينما رأى الشيخ محمد سعيد الزاهري أن تسهيل السلطات الفرنسية انتشار اللغة العربية من خلال التعليم الحر سيساهم في تحسين صورتها في بلاد المشرق الإسلامي وذلك سيشكل أفضل دعاية لها. في وقت بدأت تلمح فيه الصحافة الفاشية إلى أن فرنسا لا تعلم أبناء المسلمين ، وتمنع الآباء من تعليم أبنائهم في مدارس حرة فتحتها إخوانهم في الدين. و تسمح في المقابل للمبشرين الكاثوليك بتمسيح اطفال المسلمين تحت غطاء تعليمهم.¹⁹

2. دعوة النخبة الجزائرية المفرنسة إلى تعميم التعليم الفرنسي مع بداية القرن العشرين انطلق تيار النخبة المؤيد للمدرسة الفرنسية من أيديولوجية مفادها أن التعليم الأهلي بالمدرسة الفرنسية على النمط الغربي ومن ثم إكتساب اللغة الفرنسية وثقافتها وأفكارها الحضارية. يمكن أن يجعل من الجزائري رجلاً مستنيراً ومتخلفاً . ليصبح فرنسياً تتقبله الأوساط الاستعمارية الفرنسية بكل سهولة ما دام لا يختلف عنهم في ثقافته وتعليمه ، مرجعيتهم في ذلك تقاليد الجمهورية و ثورة 1789 ومبادئها. فسعت هذه النخبة إلى إقناع الأهالي بحتمية المصير الحضاري للجزائر من خلال إدماجها بفرنسا منذقة الجزائريين من التخلف والجهل والفقر وفي هذا المسعى يقول فرحات عباس الذي كان يؤمن بأن جيله والأجيال السابقة له كانت تأمل بأن الجزائر الجديدة ستبرز من خلال المدرسة ومن العلوم التقنية. " لم يعرف الشبان الجزائريون العالم المعاصر إلا من خلال التعليم الفرنسي.²⁰ ويضيف في نفس السياق " : ما خضت في السياسة إلا من خلال ما تعلمته في المدرسة الفرنسية.²¹

طالبت النخبة المتفرنسة بتعميم النظام التعليمي الفرنسي على كل فئات المجتمع الجزائري بوصفه تعليمياً حديثاً يكفل للجزائريين سبل العيش الكريم والرفي الاجتماعي ويسهل عملية تغييرهم وإندماجهم²². فالتعليم الفرنسي من

¹⁸ - ناصر، ن. (1983). أبو اليقضان وجهاد الكلمة. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ص 125

¹⁹ - oran républicain 17/juin1939

²⁰ - Pervillé, G.(1975) ,Les Etudiants Algériens à l'université Française1880-1962. Alger : OPU, p206

²¹ - Ibid.p 206

²² -Ismael H.(1906).Les musulmans Français du nord de l'Afrique , Paris , Edt.Armand colin. P259

شأنه أن يخلق أجيال من الشباب المتشبع بالثقافة والأفكار الفرنسية، وبالتالي يضع الجزائريين على عتبة الحضارة والرفي الذي عرفتها أوروبا من خلال مستوى تعليم راق وممنهج. و اعتبر المدرس عبد السلام بن شعيب بالمدرسة الفرنسية الإسلامية بتلمسان ، ، التعليم الفرنسي من أقوى أدوات التقارب بين الأهالي والفرنسيين ، وأن دراسة الآداب وتاريخ فرنسا ومعرفة الدور المجيد الذي لعبته عبر القرون سوف لن يكون له أثر آخر ، غير مضاعفة حبها في قلوب رعاياها الجزائريين.²³ لذلك كانت مطالب هذه النخبة تسعى إلى تعليم موحد بين الأطفال الجزائريين وأطفال المعمرين .: " فدعوا في أكثر من مناسبة إلى توحيد البرامج التعليمية. وفي هذا الموضوع كتب المعلم لشاني داعيا إلى التخلي عن البرامج الخاصة التي وضعت من أجلهم. وتطبيق برامج التعليم الخاصة بالأوروبيين في المدارس الأهلية وذلك لترقيتهم وتسهيل إدماجهم.²⁴ الأمر الذي تحقق سنة 1959. كما خصصت جريدة La voix des humbles التي كانت تصدر باسم جمعية المعلمين الجزائريين ، صفحات لكيفية تدريس اللغة الفرنسية في المدارس الأهلية ، ونشر مختلف الملاحظات والاستنتاجات التي كانت تعرقل تعلم اللغة الفرنسية في المدارس المخصصة لأبناء الجزائريين.²⁵

ولم تتفق النخبة المتفرنسة كلها على تعميم برامج المدرسة الفرنسية الخالية من كل ما يرمز إلى الهوية الجزائرية ويربط الأجيال القادمة بماضيها. فقد دعا بعضهم إلى مدرسة فرنسية لا يضيع فيها الطفل الجزائري هويته وإنتماؤه ودعو إلى ضرورة تدريس اللغة العربية وإعطائها الإهتمام الكافي حتى لا تفقد مكانتها. بل لتصبح لغة ثانية في التدريس إلى جانب اللغة الفرنسية، كما طالبوا برفع نسبة مدرسي اللغة العربية في المدارس القرآنية ، وكذلك رفع المنح الخاصة بالأهالي وتعميمها على مختلف فئات المجتمع. خاصة وإن الظروف المادية كانت تنثني الكثير من العائلات الجزائرية عن إرسال ابنائهم للمدرسة.²⁶

3. التعليم العربي الحر

²³ - جمال ، ق. (2009). نصوص سياسية جزائرية في القرن التاسع عشر 1830-1914. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ص 270

²⁴ - la voix des humbles n°40 /1925

²⁵ - la voix des humbles n°38 /1925

²⁶ - 4 .p. Délégations financière. Session ordinaire mai-juin 1924

ينطلق اهتمام النخبة الجزائرية بالتعليم الحر من حرصها على الحفاظ على هوية المجتمع الجزائري وحمايته من الاندماج في كيان الأمة الفرنسية المسيحية . وللحيلولة دون زوال الجزائر نهائيا كما أرادت لها فرنسا من خارطة العالم العربي والعالم الإسلامي ، فتصبح أندلسا ثانية.²⁷ بعدما أقتزن التعليم الفرنسي بسياسة الاندماج والتجنيس والتنصير، فأصبحت الجزائر ولم يبق بها من المدرسين بالجوامع إلا ما يعد على الأصابع، وقل الطالب والمطلوب. وهجرت ربوع العلم وخربت دور الكتب وصارت الديار مرتعا للجهل والجهلاء. بل أصبحت اللغة الفرنسية هي لغة التخاطب في المدن الكبرى مثل وهران ، الجزائر العاصمة وقسنطينة وعنابة وغيرها. والتعليم الديني لا وجود له. أما ما اتفق على تسميته بالتعليم العصري فلا وجود له بالنسبة للمسلمين.²⁸ وبالتالي كان هذا النوع من التعليم وسيلة لمواجهة سياسات فرنسا التغريبية ، في اللغة والفكر والحضارة والاتجاه والذوق العام، والسلوك الاجتماعي.²⁹ ولمحاربة سياسة الاندماج على المدى البعيد. بخلق جيل من الجزائريين متمسك بهويته حتى لا يذوب ويندثر .

في بداية الأمر أعرضت الكثير من العائلات الجزائرية عن إرسال أبنائها للتعليم في المدارس الفرنسية، خوفا على أبنائها من الانحراف عن جادة العروبة والإسلام، ولأن التعليم فيها ليس فيه شيء من العربية ومن الثقافة العربية الإسلامية.. وحتى لا يتأثروا بمبادئ جديدة غريبة ودخيلة على معتقداتهم المألوفة. فكان بعضهم يذهب إلى الكتاتيب لحفظ القرآن وبعض مبادئ اللغة والفقه. والبعض الآخر ممن توفرت له الظروف يلتحق ببعض الزوايا التي ظلت تحافظ على وظيفتها التعليمية في مناطق بعيدة من الجزائر. ومع بروز اليقظة الجزائرية ازدادت الأصوات المنادية بضرورة الحفاظ على مقومات الأمة الجزائرية، مبينة أن خطر المدرسة الفرنسية ومشاريعها التعليمية قد أضغفت الوازع الديني للعديد من التلاميذ الجزائريين.³⁰ فكان اهتمام النخبة الجزائرية بإعادة تأسيس المدارس الحرة التي أضحت موازية

27 - تركي ر، (1975). التعليم القومي والشخصية الوطنية 1931-1936. الجزائر:

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص 13

28 - مريوش، أ. (1992، 1991). الشيخ الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية.

جامعة الجزائر. رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، معهد بوزريعة. ص 273

29 - تركي، ر. المرجع السابق. ص 77

30 - مريوش، أ. المرجع السابق. ص 259

للمدرسة الفرنسية. ضرورة ملحة فرضها واقع حال المجتمع الجزائري خاصة في المدن الكبرى، وانتشار الجهل والأمية في الريف الجزائري. وينطلق رفض هذه النخبة للسياسة التعليمية الفرنسية من حرصها على أن يكون في الجزائر وسطا مثقفا لسانا وفكرا وروحا بالثقافة الإسلامية العربية... وشبابا يعتز بلغته. وعامة قادرة على التمييز بين الإسلام والخرافة وبين الحق والباطل.³¹ متشعب بقيم وثوابت دينه وشخصيته الإسلامية. الأمر الذي حدا بالكثير من المثقفين الجزائريين إلى محاربة المدرسة الفرنسية وأساليبها ومنهم أبو اليقضان الذي هاجم المدرسة الفرنسية وتعليمها. واستنتج أن ما أصبحت عليه النخبة المتعلمة تعليما فرنسيا من زيغ وإلحاد وسلوك منحرف نتيجة طبيعية لتعليم برنامجه المؤسس على قلب وضعية الإسلام رأسا على عقب... وتعليم لا ذكر للغة العربية فيه ولا تاريخ الإسلام ولا جغرافية بلاد الإسلام إلا عرضا. تعليم قوامه إعلاء مجد أوروبا وإحياء عظمتها ونشر لغتها وإتقان آدابها.³²

ولم تكن هذه المبادرة التعليمية فقط للحفاظ على اللغة العربية، بل حرصت المدرسة الحرة بالإضافة إلى نشر التعليم العربي الحر الذي أصبح له مؤطروه ومناهجه وبرامجه. إلى نشر الوعي بين جموع الجزائريين وتشجيع الثقافة الجزائرية و المحافظة على الهوية الثقافية. لذلك دعمته بالعمل الدعوي وحلقات التدريس والوعظ في المساجد. لتصبح المدرسة الحرة حصنا منيعا أمام تغريب المدرسة الفرنسية.

كما لم يأتي هذا الموقف الرافض لسياسة فرنسا التعليمية من باب التعصب و الرفض المطلق. فلم نعهد أن صرح دعاة التعليم العربي برفض تعلم اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية جملة وتفصيلا. بل جاء هذا الرفض من باب حرصها على إعطاء الأولوية في تعليم الشعب الجزائري إلى اللغة والثقافة العربية الإسلامية. و الاهتمام بهما. بما يحافظ على هويته. من أجل هذا عدلت البرامج التعليمية في المدارس الحرة بحيث تسمح للأطفال الذين يزاولون دروسهم في المدارس الفرنسية من متابعة دروس اللغة العربية وتعليم الدين الإسلامي في أوقات الفراغ أو في الفترة المسائية. كما شكلت النوادي ومقرات

31 - مريوش، أ. (2010). موقف الجزائريين من التعليم الفرنسي بالجزائر خلال فترة الاحتلال. في حولية المؤرخ، العدد 9-10، ص 281 عن الشيخ العابد الجبالي. من سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين المنعقد بنادي الترقي. ص 114.

32 - ناصر، ن. المرجع السابق. ص 125

الجمعيات المختلفة والمساجد أماكن لتعلم اللغة العربية والثقافة الإسلامية للصغار والكبار. دون أن تمنع واحدا منهم من متابعة تعليمه بالمدرسة الفرنسية. وإذا كانت ترى في العروبة سفينة النجاة للشعب الجزائري، فلم تنكر فضل الثقافة الفرنسية. فأرادت أن تكون هذه الثقافة ثقافة زائدة، وباب مفتوح للعلوم التقنية والعصرية³³.

كما جاء اهتمام النخبة بالتعليم الحر، لمواجهة سياسة تجهيل أبناء الجزائر. فقد كان أولاد الأوروبين الذين هم في سن التعليم الابتدائي يتلقون جميعهم تعليمهم في مدارس راقية، على حين لا يتلقى سوى 100.000 من أبناء البلاد في المرحلة الابتدائية من مجموع 1.250.000، طفل أما الباقون فقد حكم عليهم بالتشرد والجهل فعمل السواد الأعظم منهم في أعمال مهينة (ماسحي الأحذية، حمالين، بائعون متجولون. الزراعة والرعي). ومن ساعدهم الحظ بدخول المدرسة الفرنسية فإنهم يتعلمون في مدارس غير لائقة³⁴. أو كما سميت في الكثير من المراجع بمدارس القربي. Gourbis.

و تذكر إحصاءات أخرى أن نسبة تدرس الأهالي الذين بلغوا سن الدراسة لم تتجاوز في الكثير من الأحيان 3%. كما أن التدرج في التعليم لم يكن ميزة التعليم الأهلي الذي اكتفى أصحابه في جل الأوقات بالتعليم الابتدائي ولم تتمكن إلا قلة قليلة من الجزائريين من مواصلة مشوارها الدراسي إلى المرحلة الثانوية والجامعية³⁵. ونضيف هنا أن النخبة الإصلاحية قد اعتمدت تأسيس مدرسة التعليم الحر محاولة منها لتجاوز أزمة المدارس القرآنية التي كانت عاجزة عن مقاومة نمط المدرسة الإستعمارية الحديث من حيث هيكلتها القائمة على نظام عصري منظم، وبرامج معرفية حديثة قادرة على التأثير الثقافي والفكري.

فكان تأسيس المدارس الحرة لتعليم الأولاد والبنات الصغار اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية والدين الإسلامي، وتاريخ الجزائر الإسلام والعرب ومبادئ الحساب والعلوم الحديثة... ولل كبار الذين لم يسعفهم الحظ لدخول المدرسة. كما أسست النوادي والجمعيات لتنظيم الشباب وتربيتهم تربية دينية واجتماعية ووطنية وقومية. وربطتهم بمنظمات رياضية وثقافية وفنية مثل الكشف والفرق الفنية المختلفة والجمعيات الرياضية والثقافية. فكانت

33 - 59 Ferhat, A.(1962). La nuit Coloniale.Paris : R.Julliard, p.

34 - بوعزيز، ي. (1990). السياسة الإستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري 1830-1954. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية. ص 146

35 - الشهاب فيفري 1930 ص 41-35

المدرسة الحرة كما وصفها الشيخ البشير الإبراهيمي: " طريق الحياة وطريق النجاة، وطريق السعادة . وجنة الدنيا ، والسجن نارها. والأمة التي لا تبني المدارس، تبني لها السجون. والأمة التي لا تصنع الحياة، يصنع لها الموت. والأمة التي لا تعمل لنفسها ما ينفعها ويسعددها، يعمل لها غيرها ما يضرها ويشقىها.³⁶ أو كما كتب عنها احد محرري جريدة الشهاب " التعليم الحر به يعرف الجزائريون دينهم وبه يهذبون اخلاقهم وبه يعاشرون غيرهم الخلق الحسن والمعاملة الطيبة والعمل لرفاهية القطر وسعادته³⁷.

جاءت مدارس التعليم الحر بالدرجة الأولى لتعليم الأطفال اللغة العربية، وهي اللغة التي تحقق لهم الصلة بينهم وبين أسلافهم . كما كتب الأديب محمد بن العابد الجيلالي. وأضاف: " لأنها الكنز الذي يحفظ لهم تراث أولئك الأسلاف. وهي اللغة التي كتبت لأسلافهم بها شهادة الخلود. لأنها لسان الثقافة الإسلامية. ولسان القرآن الكريم والسنة النبوية. للذين هما أصل تلك الثقافة ومنبع وجودها".³⁸ وحتى تصبح أداة لخلق فئة جزائرية مثقفة ثقافة عربية إسلامية لسانا وفكرا وأقلاما تجول في مختلف الميادين وألسنا تتفجر عن ينبوع الحكمة وشبابا يعترف بلغته وعامة قادرة على التمييز بين الإسلام والخرافة،³⁹ وبين الحق والباطل. كذلك كانت اهداف النخبة الإصلاحية تربية جيل جديد يقف بالمرصاد لسياسة فرنسا التغريبية. ذلك أن اللغة هي سر الحياة وسر التاريخ ، ومن خلالها يفقه الإنسان دينه كما قال عنها السيد علي مرحوم في جريدة الفرقان وما الأمم في الدنيا إلا بلغتها ودينها وتاريخها.⁴⁰

ولما تأكدت الإدارة الفرنسية أن هذا التعليم يشكل على المدى البعيد خطرا داهم عليها في الجزائر. وضربة قاسية لسياستها الاندماجية التي تسير عليها منذ عام 1830 . شرعت في محاربة عناصر النخبة التي أخذت على عاتقها مسألة تأسيس ونشر هذا النوع من التعليم. وبلغت هذه الحرب ذروتها بصدر قرار ميشال 1933 الذي يمنع التدريس بالمساجد وإقامة حلقات الوعظ والإرشاد للمسلمين الجزائريين . وفي 1938 صدر القانون الذي ترتب عنه إغلاق عدد كبير من المدارس الحرة وسجن عدد كبير من المعلمين الذين

36 - البصائر عدد 172.15 أكتوبر 1951 ص3

37 - الشهاب أبريل 1930

38 - مرحوم. ع. (1977). الأديب الثائر محمد العابد الجيلالي. الثقافة العدد 39 يوليو ص82.

39 - الإبراهيمي، ب. (ب.ت). سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد

بنادي الترقى بالجزائر. الجزائر: دار الكتاب. ص 114

40 - الزبير، س. (1985). تاريخ الصحافة في الجزائر . الجزء 6. الجزائر: الديوان الوطني

للمطبوعات، ص136. عن جريدة الفرقان . العدد 4، 1938/6/6

واصلوا التعليم عندما رفضت الإدارة الفرنسية منحهم الرخصة. كما تم تقديم عدد كبير منهم للمحاكمة مع اللصوص والمجرمين⁴¹. واعتبر الوطنيون على مختلف مشاربهم السياسية أن الهدف من إصدار هذا القانون هدف سياسي بالدرجة الأولى، يقصد به القضاء على مقومات الشخصية الوطنية للجزائر. وكتب عدد من أفراد النخبة مقالات تندد بقانون 1938. ومنها جريدة البصائر تحت عنوان "محاربة التعليم العربي الحر في الوطن الجزائري" حيث قالت: "هذه حكومتنا أكبرت علينا بضع مدارس لا يأوي مجموعها ألف ولد من أمة تعد ستة ملايين نسمة ولا يعلم بها أكثر من الحروف الأبجدية ومبادئ الدين ولغة أولية".⁴²

وفي رد على إدعاءات الإدارة الفرنسية، التي اعتبرت قانون 1938 امتداد لقانون 18 أكتوبر 1892 الذي ينظم التعليم الحر في فرنسا. وأنه وضع لتأكيد المساواة في القوانين بين فرنسا والجزائر. أوضح الشيخ سعيد الزاهري. أنه من غير الممكن أن يكون الأمر كما تدعي الإدارة الفرنسية، لأن التعليم الحر في فرنسا وجد لمنافسة التعليم الرسمي الذي عمته فرنسا في كل ربوعها وأصبح إجباريا. أما التعليم الحر في الجزائر فهو تعليم تكميلي لتدارك النقص الناتجة عن محدودية التعليم الرسمي،⁴³ الذي أهمل عدد هائل من الأطفال الجزائريين، وفرق بينهم وبين أبناء الأوروبيين. وجعل المتعلمين منهم يفقدون هويتهم ولغتهم.

وأرجع الشيخ الإمام مبارك بن محمد الميلي مسؤولية حرمان المسلمين من التعليم بالمساجد وبالنواحي والمدارس إلى شيوخ الزوايا اللذين سرهم هذا الإجراء، وإلى رجال الإدارة الذين ما فتؤا يشجعون أولئك الشيوخ لحماية مصالحهم المنافية لروح الإسلام ولوسائل التقدم⁴⁴. هذا القانون الذي باركه الكثير من النواب الذين طالبوا بتشديد الخناق على رجال الإصلاح وجعل الأماكن الدينية فقط لأداء الصلاة.

41 - تركي، ر. المرجع السابق ص.88

42 - البصائر العدد 90.16 ديسمبر 1937 ص.8.

43 - Oran Républicain 13 juin 1938

44 - الرفاعي شرفي، أ. (2011). مقالات وأراء علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: الإمام مبارك بن محمد الميلي. دار الهدى، عين مليلة، ص. 322

وكرد فعل على الإجراءات التعسفية التي طالت التعليم الحر ومعلميه من قبل الإدارة الفرنسية اقدمت مجموعة من الجزائريين على فتح مدارس قرآنية سرية في الأحياء تحت رعاية الجمعيات الإسلامية⁴⁵، حرصا منها

45 - مديرية الأرشيف بولاية وهران. rapport de police du 12/1/1938 N20076f24/1f284

على الإستمرار. لأن المدرسة الحرة لم تكن فقد مؤسسة تعليمية بالنسبة للنخبة الجزائرية بل كانت وسيلة مقاومة وتحدي دون الإندماج والتجنس وسياسة فرنسا لطمس مقومات هذا الشعب فكانت كما أطلق عليها الدكتور حمادة وسيلة من وسائل المقاومة الصامتة. فكلما أمعنت الإدارة الفرنسية في منع التعليم الحر ، أصر أصحابه على الصمود والتحدي.

الخاتمة:

حاولت فرنسا من خلال سياستها التعليمية القضاء على الهوية العربية الإسلامية للشعب الجزائري. وإغراقه في الجهل والامية حتى يتسنى للكلون إحكام سيطرتهم على البلاد والعباد. وحاربت كل محاولة من الجزائريين لاستنهاض الهمم والحفاظ على لغتهم ودينهم. فكانت الجزائر ميدان صراع ثقافي بين نخبة مفرنسة تري في اللغة والثقافة الفرنسية الوسيلة للخروج إلى نور الحضارة والتقدم. ونخبة معربة سعت بكل ما كان لها من جهد وقوة للحفاظ على هوية الوطن العربية الإسلامية. فحفظت اللغة العربية من الإندثار وحمت الدين الإسلامي من الخرافات والممارسات الخاطئة التي انتشرت بين أفراد المجتمع. فأصبح التعليم عنوان التحدي الذي أبقى على هوية الجزائر العربية الإسلامية بفضل تضحيات المخلصين من أبنائها. دون أن يكون لهم موقف العداء لمدرسة فرنسية يجد فيها التلميذ الجزائري ما يرقيه وينمي معارفه بلغة تحفظ هويته وبرامج لا تتبعه عن ماضيه وماضي اجداده.

قائمة المصادر والمراجع

باللغة العربية:

الشهاب . فيفري 1930.

البصائر عدد. 15. 1951.

البصائر عدد16- 1937

14. مريوش، أ. (2010). موقف الجزائريين من التعليم الفرنسي بالجزائر خلال فترة الاحتلال. في حولية المؤرخ، العدد 9-10، الجزائر.

أمخلاف، أ. (2008-2009). عمر راسم حياته ونشاطه 1884 - 1959 . جامعة وهران: رسالة ماجستير ، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية ، قسم التاريخ،

بوعزيز، ي . (1990). السياسة الإستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري 1830-1954. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية،

تركلي، ر. (1975). التعليم القومي والشخصية الوطنية 1931-1936. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،

جمال، ق. (2009). نصوص سياسية جزائرية في القرن التاسع عشر 1830-1914. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، البخاري، ح. (2005). فلسفة الثورة الجزائرية. وهران: دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر.

جغلول، ع. (1983). تاريخ الجزائر الحديث، دراسة سوسيولوجية. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، حلوش، ع. (1997). السياسة التعليمية في الجزائر 1871-1914 ، الجزائر: دار الأمة .

الرفاعي شرفي، أ. (2011). مقالات وأراء علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: الإمام مبارك بن محمد المليي. عين مليلة: دار الهدى، الجزائر.

الزبير، س. إ. (1985). تاريخ الصحافة في الجزائر . الجزء 6. الجزائر: الديوان الوطني للمطبوعات،

سعد الله، أ. ق. (1983). الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930 . الجزء 2. ط 2. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

مريوش، أ. الشيخ الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية. (1991-1992). رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر : معهد بوزريعة .

15. ناصر، م. أبو اليقضان وجهاد الكلمة.(1983).الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

باللغة الفرنسية

- 1- A.W.O. rapport de police du 12/1/1938 N° 20076 f24 1f 284
- 2- Le petit Tlemcenien 17 juillet1930
- 3- Oran républicain 17juin1939
- 4- La voix des humbles n°40 /1925
- 5- Délégations financière. Session ordinaire mai-juin 1921
- 6- Délégations financière. Session ordinaire mai-juin1924
- 7- Délégations financière. Session ordinaire mai-juin 1927
- 8- Abbas, F.(2001). Le jeune Algérien.de la colonie vers la province. Alger : Algérie livres edition, .
- 9- Abbas, F. (1962).La nuit Coloniale.Paris : R.Julliard,,
- 10- Emir,Kh. (1987).La situation des musulmans d'Algérie 1924.alger : OPU.
- 11- Hamet, I.(1906). Les musulmans Français du nord de l'Afrique . Paris :Edt.Armand colin.
- 12- Pervillé ; G.(1975). Les Etudiants Algériens à l'université Française1880-1962.Alger : OPU.